٢ـ الشعر المرسل والشعر الحر

للأستاذ دريني خشبة

وظيفة الشعر المرسل والشعر الغنائي — الشعر العربي غنائي كله — الأقصوصة القصيرة المنظومة أو ال Ballad محاولة التخلص من القافية العربية — تحكم القافية العربية في تفكير شعرائنا — القافية المطردة هي التي حرمتنا من الملاحم والقصص المنظومة — لماذا جدد الأندلسيون — هل مضى زمن الملحمة والدرامة المنظومة .

يجب أن نعرف وظيفة الشعر المرسل قبل أن نقرأه ، ويجب أن نعرف أن هذا الضرب من الشعر الذي لا قافية له ، لا يمكن أن يستعمل فيما يستعمل فيه الشعر الغنائي الذي لا يمكن أن يستغني عن القافية ، لأن القافية هي نصف موسيقاه

والشعر المرسل الذي ابتكره الإيطاليون واقتبسه عنهم شعراء الدول الأوربية ، وفي مقدمتهم الشعراء الإنجليز ، إنما يستعمل في نظم الملاحم الطوال ، والقصص الشعرية ، والأبداعية منها على وجه الخصوص ، كما يستعمل في الدرامة المنظومة

أما الشعر الغنائي ، فيستعمل في القصائد والمقطوعات والموسحات ، وذلك لأنها أحوج إلى الجمال الشكلي ، والكمال الموسيقي من الملحمة ومن الدرامة ومن القصة الأبداعية Romance ، وذلك لأنها أيضاً ، أو لأن القصيدة أو المقطوعة أو الموشحة منها ، عبارة عن خلجات سائبة ، يجمع الشاعر أشتاتها لتم له منها وحدة القصيدة آخر الأمر . فالشاعر الذي يناجي ليلاه ، أو يشكو بلواه ، أو يبرح به الوجد في خلوته ، أو يقدس الله في وحدته ، أو يرثي للانسانية الدامية ، ويرى الشمس تبزغ فتغني لها روحه ، ويهتف بجمالها لسانه ... ويرى الزهرة تفتر عن ثغرها الأقحواني فيذكر ثغر معذبته ، فيجلس هنيهة ليقول بيتاً أو بيتين ، وينظم مقطوعة أو مقطوعتين ، وكأنما يذرف عبرة أو عبرتين ... هذا الشاعر العابر لا بد له أن يتأنى ... إنه في حاجة ماسة إلى الفن الكامل . إنه لا يستطيع أن يتخلى عن وتر واحد من أوتار قيثاره الخمسة ، إنه بحاجة شديدة إلى فتحات نايه الست ... إنه لن يقدر عن الاستغناء عن مفتاح واحد من مفاتيح السبعة ... إنه ينبغي أن يقف عند آخر كل بيت ، لأن كل بيت إنما يحمل معنى مستقلاً بموسيقاه وإن لم يستقل كل الاستقلال بمعناه ... إن شعره هو غناء قلبه وترجمان عواطفه ، وألحان روحه ، وهو إذا رثى أو مدح أو وعظ أو وصف ، فهو يتغنى بفضائل المرثي وأفضال الممدوح ، ويُحبِّب في الخير ويُبغض في الشر ، ويردد أصداء الحديقة أو القصر ، أو الجبل أو البحر ، في نفسه

وكل الشعر العربي شعر غنائي لأن الشعراء العرب لم ينظموا ملحمة ولا قصة ولا درامة . والشعر القصصي الموجود عندنا هو نوع من أنواع ال Ballad أو القصة القصيرة الغنائية المنظومة ، ونحوها بعض قصائد امرىء القيس والنابغة (في المتجردة مثلاً) والفرزدق (في الذئب وبعض القيان) وقصائد عمر بن ربيعة في غوانيه ، وبعض وقائع أبي نواس في غيده وغلمانه ، وما تفيض به يتيمة الدهر من حكايات الفضوليين والمغنين ومن إليهم ... ويلحق بهذا الضرب من

حين أنست القاهرة بزيارة الوفد السوري ، الوفد الذي تقبلته مصر بأحسن القبول ، تذكرت أن الأستاذ محمد خالد حدثني أن جماعة من أدباء سورية ضاقت صدورهم بأدبي ، فاعتزموا إرسال وفد يقنع مجلة الرسالة بوجوب التخفف من مقالاتي !

فمتى يجيء الوفد السوري الجديد ؟ متى يجيء فتستريح « الرسالة » وأستريح ؟

الحق أني لم أفكر يوماً في ملاطفة قرائي ، وهل ألاطف نفسي حتى ألاطف قرائي ؟

أنا أمشي على الشوك في كل سطر أو في كل حرف ، وما يعجبكم أو يغضبكم لا يخطه القلم إلا بعد أن يعتلج في الصدر أياماً ولياليَ وأسابيع

وما حاجتكم إلى كاتب لطيف لا يكتب في غير ما تحبون ؟ ألم تروا كيف تقهرنا الحياة على الاعتصام بالرموز والتلاميح ؟

إن الذي يغضبكم مني هو السر فيما بيني وبينكم من جاذبية يعجز عن إخمادها الزمان

زكي مبارك

ضروب القصص بعض المدائح النبوية التي تعرضت بالشرح إلى معجزات النبي ، ولعلها هي التي أوحت في العصر الحديث إلى حافظ وعبد الحليم المصري ومحمود المانسترلي بمنظوماتهم في عمر وأبي بكر وعثمان

ولسنا نعرف في تاريخ الأدب العربي أن أحداً من الشعراء العرب حاول التخلص من القافية أو حاول كتابة الشعر المرسل ، على أننا نعتبر الرجز والموشحات والنظم من قافية الألف اللينة محاولة قديمة للتحرر على نطاق ضيق من أسر القوافي ، وأقول أسر القوافي ، وأنا أعني ما أقول وأقصده لأن هذه القوافي العربية الصارمة هي السبب المباشر في قِصَر قصائدنا وقصور شعرائنا على السواء ، وهي السبب المباشر أيضاً في حرمان الشعر العربي من الملحمة الطويلة ومن القصة المنظومة ومن الدرامة المنظومة ومن الروائع القصصية بجميع أنواعها ... لقد آن أن نعترف بأن فحول الشعراء العرب كانوا يضطرون ، تحت أسر هذه القوافي ، إلى استعمال ألفاظ حوشية مهجورة مُغْرِبة ما دامت داخلة في باب القافية التي ينظمون منها . ومن المؤلم أن نقرر أن هذه الألفاظ الحوشية المهجورة المغربة كانت تتعاون مع الألفاظ السهلة المستعملة المتداولة في التحكم أحياناً في سير القصيدة وفي رسم الطريق للمعاني ... وأنا موقن أن الشاعر المطبوع والشاعر غير المطبوع مستويان في الخضوع لأسر القافية وتحكمها في جميع ما يريد كل منهما أن يقول ، حتى في المقطوعات القصيرة ، وحتى في الموشحات التي تتنوع القوافي في مقطوعاتها

وأذكر بهذه المناسبة ما يلاحظه بعض نُقّاد الآداب الأجانب على الشعر العربي من البطء الشديد في أداء المعاني التي تضطرب بها نفس الشاعر . ولا جدال في أن القافية وحدها هي سبب هذا البطء لتحكمها في تفكير الشاعر تحكماً سخيفاً مضنياً ينتهي إلى إجهاد قريحته وتجشيمها ما لا تطيق ، وتكون النتيجة المحتومة التي لا مفر منها واحدة من اثنتين : فإما أن تعطينا هذه القريحة المجهدة المتعبة شعراً مُجْهداً متعباً ، وإما أن يؤدي هذا الإجهاد إلى موت القريحة نفسها وانصرافها عن هذا الشعر المضني السخيف الذي لا خير فيه إلا لتلك الموسيقا الكاملة وإلا الطنين والرنين

لذلك نرجح أن نظم الرجز والموشحات والنظم من قافية الألف اللينة كان محاولة للتخلص من ربقة القافية المتشاكلة المملة التي تتحكم في معظم الأحوال في كل ما يريد أن يقوله الشاعر وفي كل ما يفكر فيه ، وفي كل ما يزخر به خاطره من خواطر ، تلك القافية التي لا شبيه لها إلا في الشعر العربي

ولذلك أيضاً نجزم بأن القافية المتشاكلة المملة هذه ، كانت السبب في حرمان الأدب العربي أو الشعر العربي على وجه التحديد من الملحمة والقصة الطويلة المنظومة ، ثم من الدرامة ، وذلك لأن أثرها في توجيه تفكير الشاعر يكون أقسى في المنظومات الطويلة التي تحتاج إلى المرونة والتدفق ورقة التسلسل وعدم الإرهاق بالإطراد السمج الذي يقتضي حشد خمسمائة أو ستمائة أو ألف لفظة متفقة الوزن وموحدة الحرف الأخير لمنظومة تتألف من مثل هذا العدد من الأبيات

لقد تعاظم هذا الحظر الشعراء الأندلسيين ، كما تعاظمهم كذلك أن تظل ثقافتهم الشعرية ذليلة لعروض الشعر المشرقي ؛ وتعاظمهم أيضاً أن يسمعوا إلى هذه المنظومات الرقيقة المشرقة التي يهتف بها شعراء الأسبان في غرناطة وقشتالة وطليطلة وغيرها من أمهات المدن الإسبانية ، وأن يظلوا هم عاكفين على قوافي المهلهل والسُّليك والطرماح ومن إليهم من شعراء الجزيرة العربية منذ جاهليتها الأولى ، فداروا مع الزمان الذي استدار ، وقلدوا الأغاريد الجديدة التي سمعوا ، فأمدوا الشعر العربي بتلك الموشحات الرائعة التي كانت خطوة بارعة في سبيل التخلص من القافية المطردة التي ما زال شعراؤنا أو معظمهم ينتصرون لها ولا يرون التخلص من أصفادها مع الأسف الشديد

قرأت في أحد كتب المستشرقين أن أدباءنا القدامى ، أي أدباء العرب ، الذين لم يستطيعوا أن يقرضوا الشعر اكتفوا بأن يسجعوا النثر ، وعلل الكاتب هذه الظاهرة بتحكم سلطان القافية في الشعر العربي ، واستهوائها لنفوس العرب والأمم المستعربة على السواء ، وعلل بهذا ظهور السجع في كلام العرب القديم .

فإلى متى يا ترى يظل شعراؤنا عبيداً لهذه القوافي المطردة التي لم تتغير منذ عهد عاد !

وكيف يتفوق الأندلسيون على المصريين والشاميين والعراقيين

وعرب المغرب وشعرائنا في المهاجر من حيث الاستجابة لصوت الجديد الفرد الذي كان يغني من حولهم فغنوا كما غنى وأنشدوا كما أنشد وشعروا كما شعر ، ثم يزوه بموسيقا العروض العربي ذي الثروة الطائلة من الأنغام والموازين فتأثر هو الآخر بهم كما تأثروا به ، وأذاع بتلك الموازين في العالم اللاتيني كله ، وتأثر الشعر الغنائي هناك بما يطول ذكره في تاريخ آداب الأمم اللاتينية (أسبانيا وفرنسا وإيطاليا) مما نرجو أن نعرض له في فصل خاص إن شاء الله

فكيف لا يستجيب شعراؤنا اليوم لما يدوي حولهم من موسيقا هذا الوجود ؟

إننا نقرأ شيكسبير ونعجب به ، ونشيد بذكر ملتون ونكب على فردوسه ، ونتلو آثار الشعراء الفرنسيين والألمان والإيطاليين والأسبان ، التي أنشئت بالشعر المرسل في الملاحم وللمسرح ، ثم نحن تسحرنا هذه الأشعار بسهولتها وسرعتها وموسيقاها الرائعة التي استغنت عن القافية واستعاضت منها بالنغم الحلو ، والديباجة الناعمة المشرقة ، والأسلوب الذي لا يزل ولا يسف ، ولا يلتوي ولا يتحذلق ، فلماذا يا ترى لا نستجيب في شعرنا لهذه الأصداء الأوربية الرائعة كما استجاب العرب الأندلسيون ؟

قد يقول قائل : لقد مضى زمن الملاحم ، فما بالأدب العربي وما بالشعر العربي حاجة إليها ، أما الدرامة المنظومة فقد فشل التمثيل في مصر باللغة العربية ، فهل يحيا بالشعر ؟

قيل هذا الكلام في بعض المجالس التي دار فيها الحديث عن تلك الدعوة لتجديد الأدب العربي والدعوة إلى تجديد الشعر العربي كذلك ، والذين سمعت هذا الكلام منهم أدباء متصلون بشيوخ الشعراء المصريين الذين عبنا عليهم في غير كلمة جمودهم وعدم ثورتهم على القديم وتمسكهم بأهداب الماضي السحيق الموغل في القدم ، لأنه يرتد إلى أكثر من ألفي سنة

منطق عجيب إن دل على شيء فهو إنما يدل على تجاهل لا جهل ، وإصرار على الجمود دون محاولة بذل أي جهد نحو التجديد

لقد مضى زمن الملاحم ... هكذا يقول شيوخ الأدباء في مصر . وعلى هذا فقد قضى على اللغة العربية وعلى الأدب العربي ، وعلى المتأدبين العرب ألا تكون لهم ملحمة ما ، كالإلياذة والأوذيسة لهوميروس ، والإينيادة لفرجيل ، والكوميديا الإلهية لدانتي ، والشاهنامة للفردوسي ، والفردوس المفقود لملتون ... بل قضى على الأدب العربي ، وعلى الشعر العربي ، وعلى المتأدبين العرب ألا يكون لهم قصص طويل منظوم رائع مثل ڤينوس وأدونيس والكريس لشيكسبير وسوردلو Sordello ، وپاراسلزوس والخاتم والكتاب لروبرت برونتج ، وتشيلد هارولد ودون جوان لبيرون ، وأدونيس وثورة الإسلام والملكة ماب لشلي ، والقرية المهجورة لجولدسمث ، وسهراب ورستم لأرنولد ، وملاحم تنيسون الموسيقية البارعة ، وأنديميون ولاميا وإيزابلا . هذه الملاحم أو ال Romances الشعرية الرائعة التي كان يخلق بشعرائنا أن يتعلموا منها كيف يقرضون الشعر ، وهي مع هذا من نظم كيتس الشاب الذي لم يعد الثالثة والعشرين !

أما أن زمن الدرامة المنظومة قد مضى ، وأن التمثيل باللغة العربية الفصحى قد فشل في مصر ، فهو كلام لا يقوله قوم يؤمنون بنهضة أو يوقنون بإصلاح . وسنترك انجلترا وفرنسا وألمانيا في الرد على هؤلاء اليائسين المتشائمين ونتجه بهم نحو مصر نفسها ، فنذكرهم بالفرق الإنجليزية والفرق الفرنسية التي كانت تزورنا منذ عامين لا أكثر لتمثل لنا درامات شيكسبير وموليير وغيرهما من مسرحيي الإنجليز والفرنسيين . ثم نذكرهم في الوقت الحاضر بكواكب هوليوود ونجومها الذين — واللائي — يزورون مصر الآن للترفيه عن جنود الحلفاء في الشرق الأدنى والأوسط ، وقد سمعت منهم — عن طريق الإذاعة — أكثر من خمسين أوبريت و Ballad وعشرات من المشاهد المختارة من أبدع ما أنشأ شعراء الشعر المرسل

لست أدري لماذا يستمر الإنجليز في تمثيل درامات شيكسبير ودريدن وپينرو ما دام أن زمن الدرامة المنظومة قد مضى في نظر شعرائنا الشيوخ الأفاضل ؟

على أنه إن كان زمن الدرامة المنظومة قد مضى فماذا صنع شعراؤنا الأفاضل في زمن الدرامة المنثورة ؟ لقد دعوناهم إلى مد المسرح والسينما بالدرامات الرفيعة التي نحن أحوج إليها من ألف ألف مقالة أو قصيدة أو مقطوعة مما يكتبون وينظمون ، فهل فعلوا ... هل فكروا ؟ ... لقد دعوناهم إلى أن يفكروا للعصر الحديث بعقول حديثة ، كما ندعوهم اليوم لكي ينظموا للعصر الحديث على غير طريقة المهلهل منذ ألفين من السنين ، فهل استجابوا لصوت العصر الجديد ؟ لقد شكونا إليهم عدم